الفصل الثاني

الاختيارات

حين يتخرج الشاب من الجامعة في صيف 1958، لا تكفيه حفلة شاي متواضعة، لتعلن نهاية مرحلة، وبداية انفتاحه على العالم بطريقة أكثر تعقيدًا، ومسئولية جديدة عن مصدر رزقه، ناهيك عن معاونة الأسرة التي انتظرته كثيرًا. وفي حي السيدة زينب، فأنت إما مجرد تلميذ، أو موظف صغير، ولا مجال في الحي " للبزنسة" المستقرة في محلات ودكاكين كبيرة. ولم تكن كل "التحولات الكبرى" في مصر في سنوات الخمسينيات تعني الكثير لأهالي حي السيدة زينب، اللهم إلا درجة الكثافة في "مولد السيدة" أي السيدة زينب الذي يحتل مكانته في الميدان الشهير ومحيطه باسمها. وكان ذلك يأتي دائمًا مع شهر رجب، ويأتيه الآلاف من الحضر والريف، وإن كان بنسبة أقل من مولد "سيدنا الحسين" في حي الأزهر والجمالية، والذي يقال إن رواده قد يبلغون المليون (حاليًّا حوالي 2 مليون) لا ينافسه بدوره إلا مولد

"السيد البدوي" بطنطا. ولم نكن والحق نستمتع إلا في مولد السيدة زينب لأنه حينا الأليف. وأيام المولد ينزل إليه سكان "قلعة الكبش" الأشداء، بل ومثلهم من منطقة المدبح، والأهدأ منهم منطقة زينهم (سيدي زين العابدين) ومنطقة "سيدي حسن الأنور"، ثم الأرقى نسبيًّا من حي المنيرة وفم الخليج.

وتأتي جاذبية مولد السيدة – وغيره من الموالد – مما يقام في الشارع الكبير بالحي أو المدينة، وكان عندنا "شارع السد"، حيث تنتشر أكشاك الألعاب الرياضية السحرية، والأراجوز، والمأكولات الرخيصة، واستعراضات الرقص البلدي، والشعبي، وعلى جوانب من ذلك سرادقات الطرق الصوفية العديدة، متنافسة في جذب الرواد داخلها للتبرع وأداء الطقوس.

لكن شارع زين العابدين المؤدي لحارتنا (الشيخ سليم) كان له شأن آخر، مثله مثل شارع سلامة المتقاطع معه، حيث تنتشر فيه مبيعات الحلوى والطراطير، وفسحته المتاحة لجري الصبية، وتتفرع منه حارات أصغر، تقام على أرصفتها خيام صغيرة ونسميها "الغرز" بسبب إضاءتها المكتومه الخانقة، ليس بالضرورة لتدخين "الحشيش" وخلافه، ولكنها لجلسات تختلط فيها النساء البلديات بالشباب أو الكبار، في هرج أقرب "للعبث". بل وكان يقال لنا إن البعض يمارس الجنس بلا حياء في أقرب "بير سلم" له، ولم تكن حارتنا نفسها تخلو من ذلك، وبإشراف محكم من بعض "الفتوات" في هذه الحارات. وكان بعض شباب وعواجيز قريتنا يحضرون هذا المولد

دائـمًا، وعند بعضهم أن هناك بيت "أبويا الحـاج" يضعون فيه "جنبهم"، ولا يطلبون الخدمات المألوفة من مأكل أو اصطحاب في زيارات أهل الله مما يضايق والدتي...

كان أبي قد توفي عقب وصولنا للمدينة بعامين تقريبًا، فأصبحتُ مسئولًا عن نفسي أكثر، وسط عائلة محافظة نسبيًّا لا تشارك في معظم هذه المظاهر، خوفًا على البنات تحديدًا، "وقلة أدب" الشباب مع البنات في المولد، قبل أن تشاع "مسألة التحرش" الحديثة، حيث كان ثمة تسليم، بأنهن "جدعان" ويصدون أية أخطار!..

كانت معظم الموالد – حسب خبرتي بعد ذلك – لها هذه الملامح مثلما في مولد "الحسين" والبدوي في طنطا، وإن كنت لم أخبر الصعيد. ويبدو هنا مدى ارتباط المولد بالمصالح الاقتصادية، والترويج التجاري والاستهلاكي، وترتيب المئات من محترفي الترفيه لحياتهم في مثل هذه الموالد، وكانت الشهرة الأكبر لمولد "السيد البدوي" في مدينة طنطا وسط الدلتا بأنه أكبر "سوق مالي وتجاري" لنصف مصر الشـمالي وفي موسم القطن تحديدًا، الذي يأتي تجاره ومسـوقوه بعد "الحصاد" لشراء مايلزم لمـن يتزوجون، أو يجددون منازلهم.. إلخ. يبدو هذا الهدف الاقتصادي الكبير هو ما روج لموالد أكثر من غيرها، بل وجعل مولد السـيد البدوي مثلًا مقرونًا بالشـهر الميلادي (حوالي أكتوبر) أكثر مما يسـتوجبه التدين من كونه في الشهر العربي، لكن هكذا درسـنا بعد ذلك أن "التدين الشـعبي" يكيـف الحياة بمرونة أكثر،

وهذا ما يستدعي الدرس وحده... إلخ، لذلك تقول دراسات عن الموالد إن التديـن الأصلي هو الذي يحـدد أكثر من موعد "للمولد" أو الاحتفال حيث يسـتخدم التدين احترام ميلاد الشـيخ أو وصولـه مصر بينما يخدم "السوق" الموعد الميلادي. أما والدتي فكان لها تعبير آخر عن مجمل هؤلاء "الأولياء" فثمة سبعة من أولياء الله الصالحين يحرسون مصر وأهلها... بل ويتخصص بعض الأولياء في خدمات إنسانية معينة، "فسيدي الشعراني" لعلاج الأطفال، وحسن الأنور (سيدي الجراح) يعالج العظام والجراح، "والشافعي" للمظلومين "والمغاوري" للحمل ويصل الأمر بمعجزة البعض أن يأتي بالسارق... وهكذا...

كان ذلك من حولي، وأنا أتأمل علاقة ذلك "بالتحولات الكبرى" في مصر، ومن حولي من يقول "ياعم ده مولد وصاحبه غايب" عندما أحاول أن أزعم البحث عن الارتباطات..!

لكني بتأمل أكثر تدقيقًا أشـعر أن البرجوازية الصغيرة كانت آخذة في الصعود والارتياح لخدمات ثورة يوليو وإجراءاتها ممثلة في انتعاش بعض الأسـواق والبضائع، بل وظهور نجوم في حينا مثل لاعب الكره الشهير حنفي بسطان ونجمات مثل زهرة العلا وبرلنتي عبد الحميد. ولعل وجود بيرم التونسي نفسه في نهاية شارعنا، جالسًا أحيانًا بين عربات الخضر والفاكهة مما كان ينعش الفخر بحينا.

كنت أشرت لحفلي الصغير عقب إعفائي من الخدمة العسكرية، لكن

بعضًا من "شـلة الاتحاد" أيام كنا منتظمي العلاقة، رأوا أن إضافة عناصر جامعية جديدة إلى صحبتنا، تجعلنا نقر شـكلًا للقاء الدوري للمجموعة الراغبة في النقاش وتبادل القراءات والكتب..إلخ، خاصة أن بعضنا كان يلتقي فعلًا عند صديقنا "فتحي صالح" الذي أصبح مهندسًا، لكن يهوى الموسيقا الكلاسيك بتنوعاتها، ويجمعنا مساء الجمعة في بيته لسماع شرح د. حسين فوزي في "البرنامج الثاني" الإذاعي للسيمفونيات وغيرها، ولأن المهندس "فتحي" حفيد الشـيخ الجواهري، ولديهم مكتبة، وهو من كبار التنويريين مثل محمد عبده وغـيره ممن ربطوا بين العلم والدين، فقد كان يسيطر على أهل المنزل وشخصية "فتحي" كان بها قدر من التدين الصوفي الرقيق، جعلتنا نشعر، أو حتى نصطنع الحكمة والوقار ونحن في مثل تلك الحضرة..! بل وجعلتنا مع الأصدقاء الجدد نقر مبدأ الندوة المنتظمة شهريًّا في بيتنا رغم طلب والدتي ألا يلزمها ذلك بأي خدمات..!

لم يكن ما نفعله شيئًا جديدًا على البيئة الثقافية العامة في مصر، ولم تكن أحياؤنا الشـعبية الاصيلة مثل السيدة زينب مؤهلة – وحتى الآن – لأن تكون موقعًا للتطرف الديني، الجهادي أو دعواته السياسـية أو المتشددة، رغم نفوذ الإخوان في مواقع صغيرة منها. لكنها لم تكن أبدًا حركة شعبية مثلما كانت السلفية الصامتة غير المسيسة في الجمعية الشرعية، دون ضجيج ديني مشهود. وقد عزل ذلك مثل هذه الحركات وأبقاها على هامش المدينة أو العشوائيات الآن. كانت فكرة المقاهي واللقاءات الثقافية في بعضها أو فيما تعرفنا عليها تدريجيًّا تنتشر تباعًا. كان ثمة مقهى عبد الله في الجيزة. أذكر

أن كان من كبار رواده محمود السعدني وزكريا الحجاوي، ومقهى آخر في "سـان سـوسي" بالجيزة أيضًا ومن رواده رشدي صالح وثالث في الدقي وفيـه أنور المعداوي، ورابع في الدقي أيضًا وفيه عبد القادر القط، ناهيك عن مقهى ريش وسط المدينة وفيه نجيب محفوظ، وبعد ذلك قهوة البستان خلف ريش وفيها إبراهيم فتحي وغيره والفيشاوي بالحسين والحرية بباب اللوق. كما كان هناك لقاءات أكثر برجوازية في سميراميس بساحته المطلة على النيل... ومقهى البرابرة في ميدان التحرير، ومقهى الأوبرا القديمة أو مقهى صفية حلمي، في ميدان الأوبرا القديمة، وغير ذلك مما لم أعرفه بالطبع. ولم تكن هذه المقاهي بدون معنى خاص بها أو لمجرد شرب القهوة ولكن كان لبعضها ملامح قوية بين الشعبية في الجيزة، أو الليبرالية والراديكالية في وسط البلد، أو التصارع بين الاتجاهات المختلفة في الدقي..! وخاصة عندما تحتدم معارك حول العامية أو الشـعر الحر أو الواقعية الاشتراكية. وكنت قريبًا من ذلك على مقاهي الدقي، الزهرة وإنديانا، حتى عندما رحل المعداوي بقيت مع غالب هلسـا الناقد البارز مـن الأردن، وعبد الحميد حواس وإبراهيم منصور... وغيرهم.

كانت هـذه المقاهي هي المنافذ الحقيقية للتفكير، وبعض الإحسـاس أنك لست في قبضة المؤسسات الصحفية الخاضعة تمامًا للرقابة، وإن كانت المقاهي لم تخلُ من رقابة أخرى... "البصاصين" و"العساسـين"..! لكني شـعرت بأن المثقفين لم يكونوا يراعون ذلك في مناقشاتهم إلا بمقدار، أو يعتبرون أنهم في نظام يراعي المصالح الجماهيرية بشكل معقول، وأن الشأن

العام يخصهم ما لم يمس "السلطة" مباشرة. وأعترف أني لم أكن أكثر التزامًا بالصمت إلا عقب تعييني برئاسة الجمهورية، التي أحمد الله أني لم أُفصَل منها بسبب زيارتي المقاهي وصداقاتي مع روادها "المتطرفين" إلا في مرحلة "التغير الساداتي". وكان الجميع يعرفون قبلًا أني من رواد هذه المقاهي، بينما كان الحظر قائمًا على إمكانية كتابتي في الصحف أو احتشادي هنا أو هنالك.

في هذه المقاهي حضرتُ كثيرًا من المناقشات التي كانت تنقل شابًّا مثلي من حارة الشيخ سليم، أو حتى من بوفيه كلية الآداب وندواتها إلى العالم الأوسع وخاصة منذ أخذت فور التخرج، الخروج إلى هذا العالم الذي عاش بين 1957 و1960، من القضايا الكبيرة التي قد يتذكرها القارئ. كان الجدل عن أثر العدوان الثلاثي في 1956 (البريطاني الفرنسي الإسرائيلي) على طبيعة الحكم، وسيطرة الزعيم، إزاء موقف الأحزاب القديمة السلبي أثناء العدوان، مما أكسبه نفوذًا داخليًّا وعربيًّا ودوليًّا، مثيرًا للطموحات بالطبع، بل وتوقع الشارع مكاسب اجتماعية من آثار إعلان "تمصير" الممتلكات الأجنبية والذي بدا للبعض أنه من مقدمات التأميم والاشتراكية العربية، بقدر ما اعتبره آخرون تطويرًا لفضاءات الرأسمالية المحلية المتعاونة مع النظام، كما اتسعت مناقشات هذه التجمعات لتشمل تأثير مؤتمر تضامن الشعوب الأفرو آسيوية، ووحدة مصر وسوريا ومسألة تغيير اسم مصر إلى الجمهورية العربية المتحدة، وما اقترن بذلك من اعتقال الشيوعيين أواخر 1958 بالجملة بحجة معارضتهم للوحدة مشاركة للشيوعيين السوريين

رغم أنهم الذين حملوا النظام وإعلامه منذ تأميم قناة السويس.

لا أذكر أن انعقاد مؤتمر الشعوب الأفرو آسيوية، أثار موجة ثقافية جديدة، لأن إعلام الدولة حَوَّلَه بسرعة لمجرد مكسب عالمي للزعيم، كما صعد منصته شخصيات لا تعي كثيرًا معنى الثقافة السياسية أو قيمتها حتى لمساندة الزعيم. لكن السبب الأكبر بالطبع كان "الهجوم العروبي" بضغط حزب البعث ونجاحه في إنجاز الوحدة بين مصر وسوريا باسم الجمهورية العربية المتحدة، التي اعتبرت تجسيدًا لنجاح حركة القومية العربية، وشخوص القوميين على قلتهم في مصر. كما قامت الصحافة اللبنانية النافذة بدور كبير إلى جانب السوريين الأكثر تعبيرًا فيما أتيح لهم في الإعلام، ولطلاقة ألسنتهم في هذه القضية جعلوا "دمشق" أدبيًّا قلب العروبة النابض وليست القاهرة!

ولم ينتبه أحد للتناقض الظاهر – خلال عامين – من احتفال مصر منذ وقت قصير بنقل تمثال رمسيس من منطقته الاثرية في أطراف القاهرة (الجيزة) إلى ميدان محطة مصر للسكك الحديدية (محطة رمسيس عقب ذلك) مقرونة بموجات من الفكر والإعلام عن الفرعونية في مصر، ثم القفزة إلى عالم القومية العربية بسرعة وكأننا مؤسسوها. لكن الزخم العربي كان كبيرًا بحق، ولا تستطيع مصر بأي حال أن تبقى حبيسة الفرعونية أو تقبل المتوسطية الاستعمارية بعد العدوان الثلاثي. وسبب آخر مباشر هو الموقف البطولي للعمال السوريين والشعب السوري ومعظم الشعوب

العربية عمومًا، وبشكل ملموس ومباشر أثناء العدوان الثلاثي على مصر، رغم وصول "تمثال رمسيس" إلى ميدانه في وسط المدينة!

ومن العروبة إلى العالمية في توجه إعلامي جديد بدوره عن دور الاتحاد السوفيتي وإنذار خروشوف للقوى المعتدية في 1956 مما أتاح لمصر هذا الانتصار. وهنا بدت معالم عدم الانحياز الذي سيتبلور بسرعة عقب ذلك، وعلى نحو ما سبق قولنا إن النظر لتجربة الاتحاد السوفيتي ونمطه في بناء الاشتراكية أو التنمية بعد الحرب العالمية كانت حديث المقاهي بالتأكيد. ولأن المسألة الوطنية – ثم القومية – كانت صاحبة المكانة الأبرز والأكثر إثارة في الحركة الثقافية، فقد جاءت "العالمية" – للزعامه والبلاد – لتصبح في نفس المكانة، وسط إعلام كاسح عن أهمية موقع مصر وتوجهاتها الدولية التي تتصدى فيها بشراسة – مدعومة سوفيتيًّا – ضد الأحلاف والقواعد العسكرية، وأُضيف إلى موجة الاستنكار ما نشر عن دخول الرئيس الأمريكي حينها دوايت أيزنهاور بنظرية "ملء الفراغ" في الشرق الأوسط بعد انسحاب بريطانيا إلى "شرق السويس"...

هنا سقط الأمريكيون من أي تقدير بيننا يمينًا أو يسارًا بعد أن كان أيزنهاور، يحتل مكانًا معقولًا لما بدا من "حياديته"، أثناء العدوان، متحفظًا على سلوك بريطانيا وفرنسا وإسرائيل... وكانت تغيظنا تلميحات محمد حسنين هيكل لفترة عن هذا الإعجاب في مقالته الأسبوعية الشهيرة.

وبقدر ما كنت أنا وسط اليساريين، كان يحز في نفوسنا تكراره لهذا

الإعجاب، خاصة في ظل صمت السوفيت على سجن الشيوعيين وتعذيبهم، بما بدا لا أخلاقيًّا بالمرة، بل وكان الواحد منا يشعر بلا أخلاقيته هو نفسه حـين يجمع بين يسـاريته، والدفع بدعم الموقف الوطنـي والقومي لنظام عبد الناصر.

البحث عن الطريق

في وسط هذه الدوامة، لم يكن الشاب منّا متفرغًا للثقافة بقدر ما كان همه الأساسي البحث عن عمل، وكانت فرصه محدودة حتى أوائل الستينيات عقب "قرارات التأميم الاشـتراكية"، وكنت متطلعًا دائمًا إلى أن أعمل في مجال مما أهتم به، مثل الفولكلور أو المسـائل الإفريقية على وجه التحديد. وهذا الدافع الداخلي جعلني أرفض أي شكل للتسابق على مواقع أخرى، منتظـرًا تكليفي في مجال أحبه، وهو ما لم يكن يتوفر بالطبع... وأنا في هذا المزاج عرفت في لقاء لمجموعتنا أن ثمة مسابقة هامة لوظيفة ملحق بوزارة الخارجية، وأن علينا باعتبارنا من "الشطار" أن نتقدم لها... ورفضت الفكرة..! (غرورًا بأني أحب أن أُطلب لعمل بصفتي الشخصية!).

وتقدم ثلاثة من الأصدقاء الأعزاء، شـجعتهم، وتحمسـتُ لمعاونتهم بتوفير مواد علمية تنفعهم، وأنا المستفيد من القراءة في النهاية! اخترت أن أقدم لهم مادة عن الثقافة العربية ومؤسساتها والتعليم ومؤسساته... وإذ باهتمامي بهذا الموضوع يجعلني أضع مشروعًا قد يكون كتابًا عن "الثقافة

العربية"، في جو لا يكل من الحديث عن مصر العربية أم المصرية – الفرعونية المستقلة... إلخ. كنت أقرأ أيامها كتاب طه حسين عن "مستقبل الثقافة في مصر" الصادر عام 1938، أو بالأحرى أعيد قراءته، ومِنْ ثَمَّ مررت بسرعة على جزئه الأول عن حقيقة موقع مصر من الحضارة الفرعونية.. واليونانية.. وأنهما معًا يشكلان حضارة البحر الأبيض "كحضارة غربية" فيما يسمى "بالمتوسطية"، وأنه لظروف خاصة تقدم وضع الثقافة اليونانية عالميًّا، بينما جمدت الجذور في مصر القديمة، وإن كان لا أحد ينسى حضانة مصر للحضارة مسبقًا... ومِنْ ثَمَّ فمصر في نظر طه حسين متوسطية، لا مشرقية ولا مغربية ولا إفريقية، إلا في حدود، لأن "العقل المصري القديم" ليس عقلًا شرقيًّا، ولا معنى للقول إننا من أهل الشرق (مشيرًا إلى الهند).

عبرتُ كل ذلك باعتباره سائدًا في الشارع الثقافي، وركزتُ على القسم الثاني الذي لم يهتم به الكثيرون حتى الآن في تقديري، وتقديرًا لمكانة طه حسين خارج نطاق الأدب، ويقوم هذا القسم على صياغة نظام التعليم، الذي يكفل بناء الشخصية المصرية الوطنية الموحدة... ورأيتُ طه حسين وكأنه ينتقم من الأزهر الذي "بهدله" بسبب أفكاره عن الشعر العربي، وعن استفادته من مناهج "العقلانية الغربية"، فيما كان يشبه عند البعض وخاصة في الأزهر مكر الملحدين..! فهو يتحدث عن ضرورة توحيد السلم التعليمي في مراحل التعليم العام، لأنه بانقسامه بين السلم الديني الأزهري والسلم الحديث العلمي حتى يتخرج الطالب، يجعل المجتمع

منقسمًا على نفسه بنظامين للتعليم الذي هو "كالماء والهواء" وفق مقولته الشهيرة. ويرى في هذا القسم الهام من الكتاب خَلْق أمة تكسب مواطنًا موحد الشخصية، قادرًا على الاختيار في المرحلة الجامعية حيث يمكن أن يكون ثمة كليات للشريعة، والفقه، بجانب الطب والهندسة والعلوم... إلخ، وأظنه فَصْل الحديث عن كليات اللغة في الأزهر لتُدمَج في التعليم الجامعي ليدرسها الطلاب بالمناهج الحديثة، خاصة وكانت جامعة "فؤاد الأول" (القاهرة بعد ذلك) قد بدأت العلاج بإنشاء كلية "دار العلوم" لدراسة اللغة والآداب الإسلامية رفضًا لمناهج كلية الآداب الإفرنجية. وأدى ذلك إلى وجود شخصية "درعمية" ذات بُعد أزهري وشخصية جامعية حديثة، وهو أمر غير مقبول بدوره. ومعالجة لكل ذلك وفق طه حسين يصبح "الأزهر" مجرد جامعة علمية وليس "مشيخة"، وهو ما أعجبني وأردده حتى الآن. وأظن ذلك كان أساسًا طيبًا لفصل الدين عن السياسة مبكرًا حين كان التيار الديني يبدأ التنظيم الدعوي السياسي...

ما يدهشني حتى الآن أن كتاب طه حسين القيِّم هذا كان مجرد "تقرير للعرض على رئيس الوزراء" الوفدي، مصطفى النحاس باشا لمناقشة السياسات الجديدة في ظروف توقيع معاهدة 1936. وحين أتذكر ذلك دائمًا، أحزن على وضع العلاقة بين المثقفين وحكام بلادنا بعد حصولها على الاستقلال وإدارة أبنائها – وليس السراي أو الإنجليز – لشئونها.

ومع ذلك فقد دفعني كتاب طه حسين إلى المضي في مشروع الكتاب

الذي حمسني الأصدقاء لفكرته عن "الثقافة العربية". وبالمتابعة اكتشفت أن ثمة معهدًا للبحوث والدراسات العربية تابع للجامعة العربية في جاردن سيتي، وأن على رأسه مفكرًا عربيًّا كبيرًا هو ساطع الحصري. ومن الأصدقاء "القوميين" عرفت قيمته كرائد للفكر القومي العربي، في سوريا والعراق واليمن، حيث تتعـدد أصوله كما تعددت مناصبه في هذه البلاد، وصولًا إلى القاهـرة. قابلت الرجل، ووجدته مُرحبًّا بشـاب يدرس نظامًا معرفيًّا قوميـا يهمه، وهو الوزير السـابق للتعليم في العـراق. ودلني على الكثير بدءًا من كتبه الدفاعية عن القومية العربية، وإسلامها وتراثها، من خارج العرقية التي تتهم بها..!

وكان قريبًـا منه ناصر الأسـد الذي واصـل دوره بمهنية واضحة في قضية التعليم، وقد منحني ذلك ثروة كبيرة من المعرفة، أكدت مكانتي بين القوميين لفترة، تبـدو آثارها حتى الآن..! بل وبقيتْ دائمًا وكأنها مخزوني حين أتحدث لأكثر من نصف قرن بعدها عن العلاقات العربية الإفريقية، بأريحية دون رغبة في كشف عدوانية الطرفين أحيانًا...

ونجح في امتحـان الخارجية أحد الأصدقاء من الثلاثة الذين دفعوني لهذه المغامرة! وكان يسـاريًّا، لم يستفد من معلومات مشروع الكتاب ولا من توجهاته القومية حتى صار سفيرًا هامًّا هو أحمد الزنط.

استمر شاغلي هو البحث عن "وظيفة دون مسابقات"، والوساطات كلها تتطلب معارف، خاصة من ضباط الجيش الذين يتولون المؤسسات الكبرى.

وكانت الصحف مثل "الجمهورية" يعتليها أنور السادات، و"الشعب" مع صلاح سالم، و"التحرير" مع أحمد حمروش... وهي في النهاية وطنية ونقول "ثورية" أفضل من أهل الوسط في صحيفة مثل "الأهرام"، أو ما كان من صحيفة "المصري" الوفدية والتي غادرها صاحبها أحمد أبو الفتح ليؤسس إذاعة في جنيف أوالنمسا ضد "الكولونيل ناصر" بالتعاون مع الإخوان، والمخابرات الأمريكية..! وهكذا وضع مفهوم المعارضة منذ تلك الفترة في قالب "الشبهة" و"العمالة"، ولم تقدم أية صورة لها غير ذلك، إلا بعد انتباه عبد الناصر نفسه مع الستينيات لمحاولات التوفيق مع المختلفين معه، أو ما سُمي جمع الشمل (باستثناء الشيوعية لفترة) في الاتحاد الاشتراكي في بداية الستينيات...

وقد قلت إن الجامعة كانت قد ابتعدت عن "السياسة" منذ فصل عدد كبير من أساتذتها المعروفين سياسيًّا، عقب أزمة الحكم مع المعارضة عامي 1954 و1955. ومِنْ ثَمَّ لم يكن من طابع الخريج أن يكون شاغله الانتماء السياسي، مع أني فعلتها مع الشيوعيين "على خفيف" قبل موجة اعتقالاتهم في 1959. وأقول إنها كانت علاقه بسيطة لأن الطبيب الصديق الذي تولى تجنيدي مع بعض الزملاء الخريجين لم يستمر طويلًا حتى تم اعتقاله، فلما أعفينا من التنظيم بقيت روح التثقيف والتنظير شاغلنا حتى بدأت الحلقة الثالثة من التنظيمات اليسارية ..

إلى الفلكلور؟

وجهني البعض إلى الكتابة في موضوع اهتمامي الأساسي، وهو الفولكلور، بمفهوم التراث الشعبي الذي يلقى عناية الحكام والمثقفين في هذه الفترة لبناء شعبية "الثورة" وبما يرضي أيضًا الطبقة الوسطى ويحرك مشاعر الطبقات الشعبية. ولكني كنت أحاول من موقفي المتواضع أن أعقلن هذه المسألة قليلًا، فكتبت عن "الفولكلور انعكاسات إنسانية" في مجلة "الأدب" التي يشرف عليها واحد من أكبر مفكرينا، "الشيخ أمين الخولي" وزوجته "بنت الشاطئ" واللذان كانا على رأس مجموعة باسم "جماعة الأمناء" المصراوية ترى أن الأدب العربي والثقافة مصريان لا عربيان فحسب...

كذلك كتبت عن "الفن الشعبي" في مجلة "الشهر"، بتشجيع سليمان فياض القصاص المعروف. كان ذلك، وأنا مواظب صباح كل جمعة على زيارة د. عبد الحميد يونس الذي عرض عليَّ مراجعته لترجمتي الأولية لكتاب يوري سوكولوف، التي انضم إليها فيما بعد عبد الحميد حواس. ولكن يونس كان يتخوف من الكتاب "الماركسي" من ناحية، وفصله الأول شديد الولاء للسلطة السوفيتية من ناحية أخرى. وشعرنا أنه يتلكأ بشكل واضح في إنهائه ومِنْ ثَمَّ التوسط لنشره! ولكنه ظل يغريني بالعمل في الميدان، رغم انشغاله بالرغبة في صعود ينافس "طه حسين"، وكذا انشغاله من ناحية أخرى بإنشاء "كرسي الأدب الشعبي" في كلية الآداب، ولو داخل قسم اللغة العربية، وهنا ينافس تلميذة طه حسين، الدكتورة سهير القلماوي!

وهـي متجبرة بدورهـا، ولا ينفع عندها وضع كتـاب "الهلالية" ليونس أمـام جهدها المبادر الأول في الميدان بكتابها عن "ألف ليلة وليلة"، (رغم أن أسـتاذهم جميعًا، فؤاد حسنين أسـتاذ الشرقيات الذي كان قد "بهدل" جهدها في صفحات قليلة من كتابه "تراثنا القصصي"!

كانـت هذه المعارك جاذبة، للحكي في المفيـد، وأحيانًا للعب مع هذا أو ذاك بـما يفيد أيضًا، فكسـبنا د. نبيلة إبراهيم تلميذة سـهير القلماوي، ود. أحمد مرسي تلميذ يونس، وخرجت أنا وعبد الحميد حواس من هذه اللعبة الفئوية. واتجهتُ شخصيًّا إلى أحمد رشدي صالح، باعتباره يساريًّا وصاحب كتابي "الأدب الشعبي" و"فنون الأدب الشعبي" بمنهج فولكلوري حقيقي، وذلك بعد حديث يونس لي عن مشروعه مع "الواد رشدي" لإنشاء معهد للفنون الشـعبية، أي الفولكلور، والذي قد تكون لي قدم فيه. كان العرض مغريًا، والطريق ممكنًا إلى رشـدي صالح الذي يعرف أني مترجم كتاب سوكولوف، ولا يريد هو لا المراجعة ولا النشر، لأني مرتبط في ذلك طبعًـا مع الدكتور يونس، وفق نظرية "خليه ينفعك"! لكنه كان واثقًا من جديتـي، وشرح لي مشروع المعهد ليكون بداية أكاديمية جيدة يعمل فيها أكاديميون لا موظفون، وكيف أنه سيعدني لذلك، وعليَّ أن أتحمل صعوبة البدايات. وبدأ بالفعل فحملني مهمة بناء المكتبة لمعهد مثل هذا، ليس بشراء الكتب لأنه لا تتوفر أموال، ولكن للمرور على المكتبات العامة والجامعية، والخاصـة لعمل بطاقات لكل المؤلفات التي تتعلق بالتراث الشـعبي من عـادات وتقاليد وشـعر ومختلف الفنون، لوضعهـا كفهرس للباحثين في

المركـز والزائرين له. وكنت أقضي الأيام أتابع هذه المهمة الشـاقة من دار الكتـب إلى الجمعية الجغرافية إلى جامعـة القاهرة، وكنت حتى أقف أمام فترينات المكتبـات الخاصة الكبيرة مثل "النهضـة"، و"الأنجلو"، لأنقل المسـميات، حين لا يرضى أصحاب المكتبة ببقائي في الداخل كثيرًا... مع أني كنت أجد عباس محمود العقاد جالسًا على مقعد وأمامه أكوام الكتب في مكتبة الأنجلو على وجه الخصوص! فأحسده وأحكي لرشدي صالح الذي كان يضحك واعدًا إياي أن أكون مثله..!

انتقلت مـن هذه المهمة لأخـرى، نجرب فيها إمكانيـة "جمع التراث الشعبي"، أو بالأحرى يجرب رشدي صالح تلميذًا يريد أن يثق في عملية تأسيسه! قال سـنوفر بعض آلات التسجيل وتذهب بها إلى بعض القرى القريبة أو تجمعات في المدينة مثل الموالد...إلخ. وجعل معي مساعدًا فنيًّا، بجهـاز بدائي قلنا عنه إنه "بمنفلة" أي إنه يـدوي بدرجة بدائية.. وبدأنا بقرى قريبة من القاهرة مثل "ناهيا" و"طهرمس"... سجلنا بعض المواويل والحكايات، ولكني صُدمت ببعض الرجال أو النساء ممن كانوا يتحدثون عن رئيس مصر باعتباره الملك فاروق عام 1958 أي بعد "الثورة" بسـت سـنوات. وكشـف لي ذلك كيف يكون "إعلام الحكومة" سـلبي النتائج بهذا الشـكل، طالما التعليم متخلف بهذا الشـكل أيضًـا. وأرجع البعض ذلـك لأنهم كانوا مـن "العواجيز" الذين لم تدركهم وسـائل الإعلام... وظلـت رحلاتنا المحلية تثبت صلاحيتي نتيجة الاندماج بالأسـاس فيما أفعله حتى حفظي لبعض ما أسـجله، وكنت لا أستحي من ترديد بعض

المواويل شبه المكشوفة مثل:

يا بنت كشمير حزامك غلَّب الحبَّاك

ضحكت ولعبت وقالت والنبي حباك

محلاك يا حلو ساعتن تبص م الشباك

تلقى الغلابة قاعدين صفين

منهم بسنار.. ومنهم من رمى لشباك

حتى نشأت عند رشدي فكرة رحيلي إلى قرى في الريف أبعد "لاختبار التجربـة" مع الفلاحين أو بعض من هـم في الأطراف.. من محافظات أو صحراء...

ذهبنا إلى الفيوم وخرجنا مع الصديق الأديب الراحل، والشعبي الأصيل شوقي عبد الحكيم وأخذنا بحماس خاص إلى أطراف الفيوم، عند "الأعراب" أو البدو، أو قبيلة "أولاد علي" في بدايه انطلاق الصحراء الغربية... سجلنا فعلًا بعض "المجرودات"، وهي الفن الغنائي الصحراوي الشهير، وفيما يشبه بديـل الموال هناك. وخطر لي أن أختبر معرفتهم "بالحكومة"، وأظن نطق بعضهم باسم "عبد الناصر" فانطلق شاب بما لا زلت أحفظه عنهم:

يا زينها ما اتحضنت بيه[1]...

(1) من ولدته.

ولا جابته حيضرية[1]

فتح درب يفوت أهاليه

وجاب القهوة فوق الصنية...

تُو[2]...

هــو يصف الزعيم بافتخار، لا يتوقع فيــه أن يكون إلا بدويًّا قويًّا، لا "ابــن حضر"، طري العــود، خاصة وأن عبد النــاصر كان صعيديًّا قابلًا لهذه المكانة. ثــم تنتهي بإصدار صوت البندقية الضروري إطلاقها "تو". لكني أســجل أيضًا أن تجربتي مع التســجيل لمعظــم أصحاب "المواويل" والغناء الشــعبي بالذات وخاصة إذا كانوا أميل للاحتراف، أنهم يبدءون بتحية الحاكم الزعيم أو أحد الكبار حتى لو كان المحافظ، بما كان وما زال يغيظني كثيرًا، وكنت قلما ألتقي بمن يبدأ كفنان يحمل أشجان الحب. حتى وجدتُ أحدهم يومًا ينطلق وحده بموال:

دخلت بستان حبيبي باتفرج على اللي فيه

لقيته أهيف[3] صغير فارش وراقد فيه

(1) بنت حضر.
(2) صوت طلقات نارية.
(3) طويل.

سحبت سيف الهوا راح اجزره وارميه

رمش بعينه رماني قبل أنا ما ارميه..!

وكان عالم الفنون الشعبية في مصر قد تعرض بسرعة لعدة مظاهر جديرة بالدرس، وقد قرأنا في سـوكولوف – أنا وحواس على الأقل – كيف أن الاهتمام بعروض الفولكلور أو الفنون الشعبية عمومًا، ارتبط – مع تطور القوميات – برغبة البرجوازية "في الفرجة" على فنون الطبقات الشـعبية، أو الصعود بها مع نغمة تطوير الفنون الشعبية – إلى مستواها. وأدى ذلك إلى تقديم الفنون الشعبية في مصر بأكثر من صورة، إما شعبية شعبوية على يد فنان وكاتب مثل "زكريا الحجاوي" الذي جمع بعض الفنانين المحترفين من بعض نواحٍ ريفية أو حضرية، وهم أقرب إلى فرق الموالد. ويصعد بهم على مسارح كبرى للدولة اشتهر منهم "خضرة"، و "أبو دراع" وغيرهم. وإمـا فرقة أقرب لمزاج البرجوازية مثل "فرقـة رضا" نجمها راقص باليه سابق "محمود رضا"، وراقصة باليه أيضًا، لكن الأهم أنها ابنة أستاذ كبير بكلية الهندسة هاوٍ للفنون، وتقدم استعراضاتها الأنيقة والأكثر حداثة في احتفالات رئاسية أو احتفاء برئيس زائر... وشجع ذلك بالطبع "غوازي" المواليـد ليصبحوا أقرب للفنانين الشـعبيين. وحتى ذلك لم يرضِ "الوزير المثقف"، ثروت عكاشة، المأخوذ بفترة خدمته في أوروبا، وبزياراته لدول أوروبا الشرقية وإعجابه بأناقة ومستوى العروض هناك، ورغبته في تحويل

معنى الفن الشعبي إلى "فن راقٍ" لا يرتبط بهذا الضجيج! فاستضاف وحده موسيقارًا من أوروبا الشرقية ليجمع، ما يوفر عمل أسطوانه تصبح "عالمية" بتنفيذ الموسيقي الأجنبي، وتوفر النصوص المحلية، تقدم للرواد الأوروبيين وعلية القوم تمثيلًا للفن الشعبي المصري. وأغاظ ذلك جميع الدوائر المشتغلة بهذا الفن، لكنه في نفس الوقت ساعد رشدي صالح للعمل على جمع التراث بشكل سليم من أنحاء مصر... وكنت أنا من أوائل ضحايا الخطة..!

مع حوارنا الداخلي بين مجموعة المهتمين بتنشيط المجال، وحول الأساليب المطروحة للاهتمام أو تطوير الفولكلور بعلمية حقيقية، كانت هناك أيضًا أفكار عن "استثمار التراث الشعبي" (الفولكلور) في التنمية، وأخذ الإيجابي منه لتشجيع الناس على الجد والعمل...إلخ، وضمنيًّا لتأييد "النظام" في عمله الوطني! وكنا نعتبر ذلك براجماتية غير مناسبة لن تضمن العمل العلمي في هذا المجال.

كنا نتصور دائمًا أن هذه "البرجوازية البيروقراطية" لن تتيح نهوضًا حقيقيًّا بالتراث الشعبي أو ثقافة الشعب، وستعوق خطوات ذلك دائمًا. أستطيع الآن أن أؤكد صحة فكرتنا بأن كتاب سوكولوف "عن علم الفولكلور وقضاياه" لم يمكن نشره إلا عام 1969 في هيئة الكتاب بموافقة د. سهير القلماوي (المحافظة) الشجاعة التي لم تخف من "ماركسية الكتاب"، وحيث صعب على يساريين قادوا هذا القطاع مسئولية الموافقة على ذلك قبلها..!

والكتاب أصلًا عـن المدارس التاريخية لعلم الفولكلور بعمق لم تتجاوزه كتب كثيرة حتى الآن.

وفي وسـط هذه الأجواء حماسًـا وإحباطًا فوجئنا يومًا بمقال سـاخن للدكتـور لويس عوض، من وجهة نظرنا، وهو مـن الكتاب البارزين في الأهـرام، وكان يكتب باهتمام أكبر عقب عودته من أوروبا في كل صيف تقريبا، مثل عادة كبار المفكرين أمثال طه حسين...

كان عنوان المقال يوم الجمعة: "الفولكلور والاستعمار" (لا أذكر تاريخه الآن إلا أنه كان في منتصف السـتينيات) تحدث فيه عما لاحظه من اهتمام اليونسكو بالتراث الشعبي في الدول حديثة الاستقلال أو المقبلة على إنجاز الاستقلال، في إطار مفاهيم يثبتها الاستعماريون عبر اليونسكو عن القيمة الأنثروبولوجية للفولكلور في المحافظة على الماضي أو الوضع الراهن، وهي مفاهيم "الأنثروبولوجيا الكولونيالية"، وهي في الواقع "شغل الاستعمار" للمحافظة على التخلف... إلخ.

وفزعنـا، أنا وعبد الحميد حواس خاصة، ومـا زلت أذكر ذلك حتى الآن – وإن كنـت لا أحتفـظ بالمقال، فقد نبهنـا إلى ضرورة التوقف عن القدسية أو الرومانسية التي ننظر بها لموضوع الثقافة الشعبية، لأن الفولكلور Folklore إنما هو "حكمة الشعب". أو روح (lore) الشعب (folk) الواجبة التطور لا التجميد.

ويبدو أن رشـدي صالح صمم على خطته في جمع المادة الشـعبية أولًا

بشكل صحيح. وجدته يومًا يتصل "بالعلاقات العامة" في سلاح الحدود، يرتب معهم إمكان تسهيل سفر "بعثة تسجيل الفنون الشعبية" في سيوة، حيث كنا نحتاج لتصريح القوات المسلحة، والسفر معهم من "مرسى مطروح" لسيوة، وإذ "بالبعثة" هي أنا والمساعد الفني، والماكينة "أم منفلة"! ومعي تذاكر سفر لمرسى مطروح والعودة، على أن أنطلق بعدها إلى "واحة سيوة". قال رشدي صالح إن المستشرقة الألمانية "شيرلي" ذهبت إلى هناك قبل عشرين عامًا، ولها كتاب قدمته وكيلة معهد الموسيقا لرشدي وحكى لي عن مضمونه شفويًّا ليحمسني. وصلت إلى مرسى مطروح لنبقى بضعة أيام في زمهرير الشتاء، أسجل بعض أغاني بدو "أولاد علي"، وعائلات شباب من سيوة نفسها، ثم حملتنا شاحنة عسكرية مفتوحة في أكثر من جانب، متهالكة لمده عشر ساعات إلى سيوة في المساء وكل الطريق يوحي بالعسكرية وقسوتها، حيث آوتنا استراحة منشأة للجيش أساسًا، ولم يهدئ أعصابنا إلا سماعنا لمجموعات شباب خارج الاستراحة، وأمام "راكية" النيران الدافئة إن أمكن، وصوت يسري في الأجواء كأنه قادم من البلاد البعيدة، أو الخلاء مع الأحبة... يغني أشهر ما سمعت هناك حتى من بعد:

جاني مرسول اليوم يا مَّا

جاني مرسول...

في الصباح مباشرة أدركنا معنى عزلة مناطق بشرية في المجتمع في طيات

المسـائل الأمنية، وخاصة مع المخاوف الدائمة من الحدود الليبية المنفتحة على فضاء لا متناهٍ من الصحراء الغربية. الكل يغني "بلهجة سيوية". كانت هناك عزلة كاملة للمرأة، وفي المدرسـة والتعليم يلزم للمعلم القادم "من مصر" مترجم من أو إلى اللغة السيوية. كانت هناك حقول للزيتون، وآبار ونخيل في المرتفعات، واحتفالات سـنوية لم يبقَ من آثارها منذ أكتوبر إلا القليل... وهو ماكتبته في تقرير مُطَّول فرح به رشدي من حيث المبدأ، لكنه فزع من اسـتخلاص أنهم لا يتحدثون العربية وإنما "لغة غريبة... هي ما يسميها البعض "البربرية" ولنعرف بعد سنين أنها "الأمازيغية"! وبانزعاجه كتب مقالات واتصل بقيادة الجيش لمعالجة مشكلة عزلة جزء من الوطن وعدم تعلم أهله العربية الفصيحة. وأظن أن ذلك قد حدث، إذ بذل مجهودًا ملحوظًا، لأني أذكر أنه بعد عامين أو أكثر ذهبت إلى هناك لأجد المدرس يشرح مباشرة للأطفال "باللهجة القاهرية"... فابتسمت..!

جلتُ كثيرًا في أنحاء القطر، مع تقدم الآلات المصاحبة نسبيًّا. وكانت تجارب مفيـدة ظلت في قرار معرفتي بالبلاد، رغم أني في الأصل "فلاح" وتربيتـي في "السـيدة زينـب"، لكن تظل بعضهـا ذات دلالة خاصة عند استرجاع الذكريات. إحدى مغامراتي في السعي إلى عالم التراث، كانت ذهابي إلى قرية "ميت دمسـيس" على فرع دمياط بالدقهلية لحضور وقائع "مولد مار جرجس" هناك، حيث أغلبية الزوار تقريبًا حول الكنيسة الكبيرة من المسلمين، يأتون من أنحاء قرى ومدن الدلتا، حيث سيدات الطبقة الوسطى يمشـين بالجلاليب "المدندشة" والشباب يسعون بالتهريج لاجتذابهن...

لكن الأهالي المنشغلين "بالشـهيد" خاصة من النساء يدخلن إلى "مقامه" ليخرجـن صارخات: "دبح عليها" أي أخرج الشـيطان من هذه أو تلك أو من أحد المرضى، ودماء الشـيطان، كما قالوا تسيل على ملابسه. والحق أني لم أرَ أي دماء، ولكني رأيت المسـلمين والأقباط يجلسـون على مقاهي القريـة وفي طرقاتها، يتحاكون عن المعجزات متمتعين بفضاء القرية التي يسـتأجرون فيها الغرف بغالي الأثمان، ويقومون في فجر اليوم الثاني نساء ورجالا يتمشـون على تـرع فرعية للنهر... ويقومون خـلال النهار أيضًا بزيارة ضريح "سيدي محمد" الضئيل، والذي بُنيَّ من قبل بعض السلفيين في القرية المسـلمة التي تحتمي بمار جرجس، مع أنه ظل قليل الانتباه إليه نسبيًّا. قضيت يومين أو ثلاثة في حالة دهشة وبهجة لهذه المشاهد وتسجيل للقاء بين المسلمين والأقباط وحكاويهم عن معجزات الشهيد.

وسجلتُ ذلك في تقرير، نُشر مع تقرير سيوة والفيوم في "مجلة الفنون الشـعبية" المتواضعة التي أعدها المركز لعرض نشاطه. وأسعدني مؤخرًا أن شـابة بمعهد الفنون الشعبية حصلت على الدكتوراه عن مقارنة المولد الذي زارته هي حديثًا مع مظاهر المولد القديم الذي وصفته أنا منذ خمسين عامًا.. ولن أنكر سعادتي بقول أحد الأساتذة الممتحنين أن التقرير الأول كان أكثر تعبيرًا..!

مع هذه الزيـارات والكتابات، كان رشـدي صالح يتزايد إعجابًا بي، رغـم عـدم تقدم مشروع "المعهـد الأكاديمي" لأنه لم تكـن هناك ميزانية

حتى للمركز المتواضع. وحاول رشدي ترضيتي، وفاجأني وأنا ما زلت في السنة الرابعة – سنة الليسانس بكلية الآداب – بترشيحي لزيارة علمية إلى بولندا تستغرق ستة شهور. وكان معنى ذلك غيابي عن امتحان الليسانس الذي سأخرج منه للحياة العملية. وكان الإغراء شديدًا، وكدت أضحي لأذهب... ولكن الاختيار كان صعبًا، فاعتذرت، ورَشَّحَ مَنْ كان قريبًا منه بمكتب يحيى حقي رئيس مصلحة الفنون الذي كان مُلحًّا بدوره في اختيار مساعده. فطابت له، وإن كان لم يعد بعد هذه المهمة التدريبية إلى العمل في المركز..!

ويذكرني ذلك بما حدث بعد عام تقريبًا في نفس المركز، حيث طلب رشدي صالح بعد تخرجي منحة علمية من الوزارة، فحَوَّلَتْ له إدارة البعثات منحة دكتوراه من ألمانيا يستطيع الترشيح لها مباشرة، وزف الخبر إليَّ، وفرحنا له كثيرًا. وتقدمت بأوراقي، لأعرف بعد عدة أسابيع برفض ترشيحي لأن شرط المنحة الحصول على الامتياز في علم الأنثروبولوجيا – وأنا ابنها الرشيد! – وإذ بتقديري أقل من الامتياز، فكانت الصدمة. وكان لا بد من معالجة تضمن المكان لأحد الجادين الذين يستطيعون المضي في عالم الفولكلور بشكل مناسب لأحلامنا – وأنا أتحدث هنا بالجمع لأن علاقتي برشدي صالح كانت تسمح بذلك – واستقر تقديري أن أرشح له من جانبي من يعيد ترشيحه وأنا أثق به. ووقع اختياري على "محمد محمود الجوهري" الذي كان حديث التخرج حينها واصطحبته إليه فرحب رشدي بترشيحي، وسافر ليعود أستاذًا كبيرًا في علم الفولكلور، لكن

ليسعى بسرعة إلى الجامعة وليس إلى مركز الفنون الشعبية. والدنيا أهواء بالطبع... وظلت "الآداب" هي مصدر الفولكلوريين فجاء في مقدمتهم "أحمد مرسي" ثم تلاميذهم.

من طرائف عالمي الفولكلوري المشحون بالمشاهد والإحباطات والسعادات، ما أذكره أني وأنا أبحث عن الوظيفة أو المكافآت المُرْضية عن شقائي، وتأجيلاتها الدائمة مثل تأجيل مصيري نفسه لبضعة سنوات، أن وَجَدَ المركز هامشًا لصرف مكافأة لي عن كل الجهد السابق في أكثر من ستة شهور. وبعد أكثر من عشرة مشاوير ما بين مقر المركز في شارع الألفي ومقر مصلحة الفنون في شارع عبد الخالق ثروت، حيث الشؤون الإدارية للمصلحة، ومقر قصر عابدين حيث الشؤون المالية للوزارة، وجدت مكافأتي هناك مبلغ ثلاثين جنيهًا. سخرت منها أمام رشدي صالح في ظُرف مصطنع، بينما فرحت بها واشتريت بدلة كاملة لأول مرة في حياتي..! ودعوتُ صديقتي على محل "إكسلسيور" في وسط البلد الذي كان يرتاده الشبان متوسطو الدخل، لنشرب الكاكاو باللبن، وسَرَّها ذلك أيضًا، ثم ذهبنا بعدها للقاء جمعية السينما الدوري في حديقة قصر عابدين، وكنت عضوًا نشيطًا بالجمعية مع هاشم النحاس وأحمد راشد ويعقوب وعبد الحميد سعيد ويوسف رزق الله وسعيد عبد المحسن... كنت حريصًا على مواصلة الالتقاء بأصدقائي ومعارفي ولم أشأ أن أستسلم للإحباط، وكنت أرى أن باب الاختيارات ما زال مفتوحًا، وعليَّ الاستمتاع بعوالمي الثقافية.

ترجمتُ نصًّا لكارل مانهايم عن "المثقف والالتزام" من كتابه عن "اليوتوبيا والأيديولوجيا" ونشرته بمجلة الآداب البيروتية، أكبر المجلات الأدبية المثقفة والتي كان يراسلها بعد رجاء النقاش وحيد النقاش، وكان صديقًا عزيزًا ومثقفًا بحق، بل ودفعني لكتابة مقال هام في حياتي عن القيم النقدية في الأدب الشعبي (إبريل 1961). وبعد انتهائي من السنة التحضيرية للماجيستير تقدمت لرئيس قسم الاجتماع بمشروع للماجيستير عن "سوسيولوجيا المعرفة" وخاصة عند كارل مانهايم. ضحك ساخرًا من إمكانية معرفتي لهذا الموضوع، وأنه أحرى بي أن أذهب إلى قسم الفلسفة، لأن قسمنا مهتم بالعمل الميداني "لخدمة الثورة"، وأفضل لي أن أدرس معه "ملاجئ الجانحين"... إلخ (والحق أني كنت أنا "الجانح") فتركته وعدتُ بعد قليل حاملًا مشروعًا متأثرًا بوجودي في الرابطة الإفريقية عن "مكون الحركة الوطنية في نيجيريا" نظرًا لنفوذ الزعامة الوطنية مثل "نامدي أزيكوي" على مطمح "تكوين الأمة" رغم القبلية والطائفية..إلخ، وكنت سعيدا جدا بإدراكي هذا، بل وضعت فصلا للمقارنة بالوحدة في "باسوتولاند" لما تصورته عن التكوين القبلي الموحد في هذه الجزيرة المحاصرة من النظام العنصري... إلخ. سخر مني السيد مرة أخرى، محيلًا إياي للمعهد الإفريقي الناشئ حديثًا، "لأن قسمنا..." وكرر مجال الخدمة الاجتماعية.

كدت أضيق بكل ما حولي... ورحت أتردد أكثر على الرابطة الإفريقية، فقد كانت مقابلاتي مع الشباب هناك أكثر راحة وفائدة، وكان ثمة مشروع مجلة تصدر عن الرابطة قد أكتب فيها أو أترجم لها. وهناك وجدت إشارات

من مكتب السيد محمد فايق – مستشار الرئيس عبد الناصر للشئون الإفريقية منذ عمل معه أثناء الثورة وفي القوات المسلحة، وأحد مؤسسي الرابطة الإفريقية – (للاستفادة مني) بشكل أو آخر، فتحمست للإشارات...

عدت صباح يوم إلى أستاذنا رشدي صالح متجهم الوجه، فدهش، وهو يخرج صرصارًا من فنجان قهوته، دون أن يعاقب الساعي الطيب، وضحك ضحكته الشهيرة وهو يقول "ولا يهمك: نأكلها في الصعيد... وفي السجون..! ماذا عندك؟" قلت له إني أمام خيار أن يكون مشروع المعهد الأكاديمي جادًّا وأنا مرشح له قريبًا... أو أن أقبل بإشارات أخرى للعمل في الشؤون الإفريقية...؟ تردد قليلًا.. وفي جدية قال: "يا ابني لا أمل مع هؤلاء الناس، وهذا الوزير رغم جديته وثقافته، ليس في باله مسألة الفولكلور أو الفنون الشعبية... امضِ في طريقك...".

كانت الجملة قاسية، رغم توقعها. لكنه استمر في الحديث الودي، بما يعني أننا سنظل نتعاون قدر المتاح أو الاستطاعة لأن من في صدره هوى لشيء ما لا يستطيع إلا أن يتنفسه، وبدت لي هذه حكمة قائدة، حبذا لو نجحت معي...

وعدته أنني بالقطع مستمر في منهجي العلمي حول التراث الشعبي مهما شغلتني احتمالات العمل الإفريقي، وأننا نفكر في تأسيس جمعية أهلية للفولكلور، كنا شرعنا فيها بالجامعة مع د. عبد العزيز الأهواني، الرجل

الفاضل، البعيد عن الأهواء، واستراح رشدي لذلك، ورحنا نتحدث عن تنفيذ إقامة الجمعية. لكن هذا المشروع وسط حركة المجتمع المدني ظل في حصار الصراعات والشخصنة حتى الآن، رغم معرفة الجميع من دارسي الفولكلور بالأهمية القصوى والأدوار التي قامت بها مثل هذه الجمعيات في تاريخ الفولكلور بفنلندا وأيرلندا على وجه الخصوص. ولتهدئة الجو اعتذر رشدي عن ضآلة مبلغ الثلاثين جنيهًا التي انتهت مكافأتي إليها... وصار التزامي أكثر بالجهد مع الرابطة الإفريقية، أكتب وأترجم كما سيأتي فيما بعد. ووجدت تشجيعًا ومودة من عبده بدوي الموظف بوزارة الثقافة والشاعر والمسئول عن "نهضة إفريقيا" مع عبد العزيز إسحق، لكنني ظللت أتابع مع الأستاذ رشدي نشر مقالاتي في مجلة المركز، حيث أراد مودتي بإبراز كل إنتاجي في المجلة، وإن اضطر أن يضع بعض هذا الإنتاج باسم موظفين في المركز لا صلة لهم بهذا الفن!

ترجمت في تلك الفترة مقالًا هامًّا من مجلة "الجمعية الجغرافية" عن "الأصل الحبشي للزار" قد يكون دفعني إليه انتشار ظاهرة الزار في مناطق أسمع بها في حي عابدين والدراسة بالأزهر، ويُشاع أن مرجعية الزار عند الأحباش والسودانيين، مثل مرجعية السحر عند المغاربة، كان مقالًا شائقًا سلمته لرشدي صالح ولم أعرف مصيره. كما ترجمت مقالًا هامًّا آخر عن الأمثال الشعبية للأنثروبولوجي "وسترمارك"، والذي أذكره أن عمله المشار إليه في المقال يحيل إلى مؤلفه الذي يجمع حوالى 2000 مثل شعبي من المغرب حتى دمشق، وأن خلاصته هو التشابه في عدد كبير من أمثال

هذه البلاد...وكنت أقرأ بالطبع عن دراسة الأمثال الشعبية كجزء من علم الفولكلور، وأعرف أن الأمثال تعبير محلي خالص، يصدر عن مجتمع مندمج، بسيط التعبير عن نفسه بهذه الأمثال الحضرية أو الريفية... فما الذي يخلق هذا التشابه – في رأيي غير مدعٍ مثل "وسترمارك" إلا أن تكون هذه الشعوب العربية على قدر من الاندماج الذي حققه التاريخ رغم الصراعات المرة بين الحكام؟ وكان جو الثقافة القومية الذي انطلق بعد وحدة مصر وسوريا، يتيح لشاب مثلي ترويج مثل هذه الأفكار، التي ترحب بها الشلل القومية بالضرورة. ويجدني القارئ هنا أشير إلى "القوميين" وكأنهم "الآخر" بالنسبة لما يحيطني من أجواء... وفي هذا بعض الحقيقة. فالبعثيون قدموا لعبد الناصر حاملين مخاوفهم ليس من تركيا والأطلنطي وحلف بغداد فقط، ولكن من الشيوعيين أيضًا الذين كان لهم باع طويل أيضًا في الجيش والساحة السياسية لسوريا والعراق، وأراد البعثيون محاصرتهم أو ما قيل عن "ضربهم" بعبد الناصر، وكان الأخير يرى أيضًا التهديد للبنان كخطر مُحتمَل، إذا استمر الوضع كذلك.

لم أكن أفكر هكذا بالتأكيد كاستراتيجي خطير..! فبعض ذلك من جراء نضج لاحق، أو "حكاوي المقاهي" في ذلك الوقت كما يقولون، لأنني كنت في تلك الفترة قد بدأت منذ أوائل عام 1958 الاشتباك مع بعض عناصر الحركة الشيوعية من جناح يعمل في تكتم شديد وسرية حديدية هم زملاء "طليعة العمال". كان طبيبًا متميز الأخلاق والهدوء ذلك الذي اصطحبني وبعض أعضاء شلة الحارة إلى هذا العالم الأممي،

ولم يرتح حين كنا نذكر حركة "حدتو" (الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني) أحيانًا، ونحن نرى شعاراتها على الحوائط ونسمع بأهلها في الفنون والآداب، إلى حد الحديث عن كسبهم لراقصة شهيرة مثل "تحية كاريوكا"، فضلًا عن صحفيين وكتاب كبار، غير أنه كان ملتزمًا بتعليمات صارمة بألا نعرف تفاصيل عن حركته إلا بعد ستة شهور أو سنة لا أذكر، حتى اختفى هو نفسه بسبب هجمة أمنية من الاعتقالات قادتها أجهزة أمن عبد الناصر على الشيوعيين آخر ليلة في عام 1958 ومطلع 1959، غير مبالٍ بمسار الاتصالات القوية بالاتحاد السوفيتي خلال عملية بناء السد العالي. ومن السد العالي إلى التأميمات 1961 إلى صدور ميثاق العمل الوطني عام 1962 وإعلان الاشتراكية العربية تارة والاشتراكية العلمية تارة أخرى والطريق العربي للاشتراكية تارة ثالثة مما شكل عالمًا جديدًا... وإن شغلني عن تفاصيله لفترة انشغال أوسع بالمسائل الإفريقية المباشرة.